كان وقبائلها «8»

محمد القعود
Kood500@hotmail.com

كان الحنين
يحمل جميع أغراضه
ويبحث عن مكان لم تلوّثه الأباطيل،
يبحث عن رصيفٍ لم تجرحه الكراهية
أو مقعدٍ لم تجلسْ بجواره المناطقية،
أو شارعٍ لم تمرّ منه الخيانة،
أو حارة لم يسكنها الغدر المفخّخ،
أو مقهى لم تلوّثه النقاشات المسمّمة،
أو حديقةٍ لم تحرقها نراجيل المشايخ والجنرالات.

كان الحنين
يحمل جميع أغراضه
ويبحث عن أزمنته الضائعة
وأصدقائه المتعبين بحب الآخرين،
وحبيباته اللاتي أحببهن من طرف واحد
ولم ينل منهن سوى السهر الطويل، والقُبلات الورقية،
والديون المتراكمة لأصحاب المكتبات والاستديوهات
والمقاهي وباعة القات والأحلام المؤجلة.

كان الحنين
يحمل جميع أغراضه
ويبحث عن غرفة بشرفة واحدة
في وطن استأجره أشباحُ التخلف
منذ أزمنة بعيييييدة!

كان الظلال
يغتصب براءة المبادئ
ويلتهم خضرة المحبة
ويتّهم الرغيف بخدش حياء معدته.

كان الظلال
يتسكع فوق سيارته الـ «هامر»
ويخترق أحياء المدن الملوّثة بفيروس الضياع
وأفيون البطالة،
يرسل قُبلاته الممزوجة بالشطّة الحارّة
إلى رعاعه الجوعى، وخلاياه النائمة منذ الأكذوبة الأولى.

كان الظلال
يتحبّب إلى نفسه، ويبشّرها بحفنة من البلهاء
وبسلطةٍ تتهاطل منها الجواري الحسان والمنّ والسلوى،
وبخزينةٍ عامرةٍ بالأهواء.

كان الظلال
يمدّ جسمه بالعسل المخلوط بالإثارة
ويتزوج من كل شارع امرأة مسحورة بأفكاره..
يلغي جميع تحفظاته وموانعه الشراعية
وينكح ما طاب له من المطامع والشعارات.

كان الظلال
يوصي أتباعه بترف الضغائن
والاستزادة من إرث المآسي
وإشعال القحط في كل خطوة،
وتناول «كنتاكي» مع البيرة البااااااااردة،
وتأليف الشتائم الخارقة لكل عابر
وتدريب الأكاذيب على تقديم عروضها الماجنة،
واتهام الأمم المتحدة بتشويه الرقص الشرقي
وتحويل كأس العالم إلى كاهن شاذ
يعلّم غلمان الحواري ضربات الجزاء.

كان الظلال
يلتقي بمندوبي الشيطان والعدالة العرجاء
ويدعوهم إلى وليمة تعدّها ضحية جديدة،
وسهرة حمراء تتعرى فيها اللغة/القيم
من جميع موانع الصرف، والحذف والإضافة.

كان الظلال
يعتلي منصّة الهنود الحمر
ويعلن تضامنه مع «السهم الطائش»،
وإدانة المجموعة الشمسية
على تشبّه الأرض بالكوكب الأحمر.

كان المستقبل
يستعجل قدوم رجولته،
يتحرّش بخيالات النسوة
ويحرّض خيوله على بدء الصهيل..
يلتقط أعقاب السجائر
ويمج بقاياها بنَفَس طويل،
يحفظ جُمل الأفلامِ المثيرة،
ويجعل عضلاته النامية تزمجر
علّ المارة يتناقلون أخبار فتوّته
ولعل بنت الجيران تمنحه نظرة إعجاب.

كان المستقبل
يتدرب على الكونغ فو،
ويتهجّى بعض العبارات الإنجليزية
ويعلن تبرّمه من كل شيء
وضد كل شيء، فهو منذ الآن ثائر.

كان المستقبل
يغذّي شاربه الصغير بمختلف الأسمدة،
يجلس في أول غروره
ويمدُّ ساقه .. إن مرّت أغنية قديمة
فتتعثر وتصاب بكدمات موسيقية،
أو إن مرّت فاتنة الأحلام
فتسقط على وجهها ويندلق عسل أنوثتها،
أو إن مرت بائعة الحظ
فتطير من سلّتها طيور المواعيد..
أو إن مرت بندقية،
فتتجه إلى دائرة الحياد،
وهو إلى الاتجاه المعادي للحياة.

كان المستقبل
يحرق مدرسته بتلذّذ منكّه بالزنجبيل والقرفة،
ويحاكم مدرّسيه بتهمة أداء الواجب،
يخدش حياء الجدران بكتاباته المدبّبة
ويضع الأحجار في طريق العميان،
ويغضّ بصره عن الفضيلة.

كان المستقبل
يغسل عقله) ٢٥ (ساعة في اليوم
بتعليمات الأحزاب العقيمة ومنظّريها البلهاء،
ويرشق والديه بأحجار من المعصية
إن زجراه عن تعظيم الخراب.

كان الإحباط
يحل كلماته المتقاطعة، ويحقق بعض
الانتصارات الصغيرة،
يكافئ نفسه بفنجان آخر من القهوة المرّة
وزفرة حرّة تتقيّأ ثمالة أعماقها.

كان الإحباط
يقف في وسط الطريق
ويعتدي بصورة وحشية على التخلف،
يعضّه، ويسدد لكماته القاضية
نحو جسده المتلوّن، بتتابع مخيف،
يدميه صفعاً، ويتعرض لسُلالة أجداده بالشتم المبرح،
وتعييره بالانتماء إلى العالم الثالث عشر.

وبين اللعنة والأخرى
يتطلع إلى المشاة، علّه يجد مَنْ يعترضه
أو يحتج على أسلوبه الهمجي..
لا أحد تحرّكه المروءة،
ولا أحد يحول دون هيجانه
ولا أحد يترجّاه رفقاً بالمسكين..
ونكاية بالجميع وبمشاعرهم البلاستيكية
يعتذر لضحيته، ويمنحه «سيدي» C . D
من الأفلام الرومانسية الساخنة،
وعلبة سجائر، وكتاب «كيف تقهر المستحيل»!!

كان الإحباط
ينفي اعترافه بشيخ قريته الأدرد
ويطالب بإدارة مدنية لمعالجة القضايا
العاطفية،
وبقرار من هيئة الطفولة
بإيجاد ممر آمن لسير الفرح
دونما اعتراض من باعة الكآبة
أو احتلال القرود لأشجار الطريق
أو إطلاق الظمأ على ينابيع القرويين.

كان الإحباط
يتبول على جميع الكيانات
ويخرجها من جحورها الإسمنتية
ويسألها بمرارة عن مباركتها لمصنوعات التخلف
وصمتها المريب عن نعاس العملة الوطنية
ورقصها المفضوح مع ليل الأجانب.

كان الإحباط
يمسح مؤخرته ببيانات الأحزاب وصحفها
ويشعر عقب كل إسهال
برغبة في الحديث عن الديمقراطية
والتداول السلمي للسلطة
واستعراض السيناريوهات المطروحة
لفيديو كليب «فتنة حركات»

كان التاريخ
يتأمل المشهد بغرابة، ويحك رأسه بحيرة،
يضحك بهستيريا، ويضرب كفاً بكف،
يسعل حتى تحمرّ وجناته،
وأحياناً يرتمي على الأرض
ويتمرغ بالتراب كحمار طليق..
يركض بشكل دائري وهو يصرخ :
– من قبل مائتي عام
والوقائع تعيد نفسها،
وتتناسخ بصورة متشابهة!!

كان التاريخ
يسرد لجلسائه الخلّص
جاذبية الكراسي، وعشاق السلطة
من الجنسين، ومن الحضر والبداوة..
ينتف من إبطه مؤامرة، ليروا أبعاد رائحتها،
ويخلع ثوبها الداخلي فيتهاطل ضحاياها،
يمنحها كأساً من النشوة
فتدلق جميع أسرارها، وتهب نفسها
لأول فارس يقتحم دائرتها الغامضة.

كان التاريخ
يجول في الأسواق، والقصور،
وعلى كتفه غرارة من ماضي الحضارات والأمم
وأصداء عتيقة لعروش ونعوش
ومجون نحور وخصور،
وظلال شاحبة لبطولات كسيرة.

كان التاريخ
يفتح دكانه منذ الصباح الباكر،
وينتظر أي عابر يتأمل بضائعه البائرة..
يخفّض أسعاره، ويمنح تسهيلات كثيرة
لكن لا أحد يمر به، أو يهتم بمعروضاته،
لا أحد يرغب باقتناء الأشياء المستعملة.

● مقاطع من نص طويل

إصدارات ثقافية

الدروب المؤدية إلى الحداثة

مؤلفة هذا الكتاب هي الباحثة الأميركية جيرترود هيميلفاري أستاذة علم التاريخ في جامعة نيويورك منذ عام ١٩٧٨. وفي عام ١٩٩١ عينوها أستاذة للدراسات الإنسانية التي تحمل اسم توماس جيفرسون، أحد الآباء المؤسسين للأمة الأميركية. وهو أعلى منصب جامعي في الولايات المتحدة. وقد نالت جائزة كبرى على أعمالها في هذا المجال. وهي الآن تعيش مع زوجها أرفنغ كريستول في مدينة واشنطن.

وفي هذا الكتاب الجديد تتحدث المؤلفة عن كيفية ظهور الحداثة في الغرب الأوروبي الأميركي منذ عصر التنوير وحتى اليوم.

وهي ترى منذ البداية أن البعض يقدس عصر التنوير ويمنع نقده باعتبار أنه معصوم. أما البعض الآخر فيحمل عليه حملة شعواء ظالمة باعتبار أنه مسؤول عن كل جرائم الحضارة الغربية وانحرافاتها في زمن الاستعمار.

وترى المؤلفة ان كلا الموقفين خاطئ، فالتنوير يستحث النقد البناء لا الهدام، مثله في ذلك مثل أية تجربة أخرى في التاريخ ولكن تيار ما بعد الحداثة بالغ في نقده إلى حد التهديم والتدمير وهذا ما لا يجوز لأنه يؤدي إلى تدمير المنجزات الكبرى للحداثة.

ومعلوم أن الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين من فوكو إلى دريدا مروراً بجيل ديلوز وجان فرانسوا ليوتار بالغوا كثيراً في هذا الاتجاه، وهو اتجاه عدمي شكاك، لا يؤدي إلا إلى الخراب، نقول ذلك على الرغم من أهمية انجازاتهم الفكرية والنقدية.

ثم تردف المؤلف قائلة: إن أصل التنوير انجليزي ولكن الفرنسيين استولوا عليه واحتكروه واعتبروه من صنعهم فقط، وهذا غير صحيح، وبالتالي فينبغي أن نعيد الأمور إلى نصابها ونعترف لفلاسفة الانجليز بقصب السبق في هذا المجال.

فلولا جون لوك وإسحاق نيوتن ما كان فولتير وديدرو وروسو وسواهم، ولا أحد يستطيع أن ينكر إنجازات شافتسبري ودافيد هيوم، وادموند بيرك، وآدم سميث، وغيرهم كثيرين، وبالتالي فالاستنارة كانت أولاً انجليزية قبل أن تصبح فرنسية وألمانية وأوروبية.

وأكبر دليل على ذلك هو أن الثورة الانجليزية سبقت الثورة الفرنسية بقرن من الزمان على الأقل. وبالتالي فالشعب الانجليزي سبق الشعب الفرنسي إلى التحرر السياسي ونيل حقوقه بعد القضاء على الاستبداد والطائفية والتعصب الأعمى.

فالثورة الانجليزية الثانية التي حصلت عام ١٦٨٨ سبقت الثورة الفرنسية بمئة عام على الأقل (١٧٨٩).

ولهذا السبب نقول إن انجلترا هي أعرق ديمقراطية في العالم. نقول ذلك وبخاصة أن الثورة الانجليزية تمت بشكل سلمي ولم تكن دموية كالثورة الفرنسية. وقد أمّنت للشعب حقوقه الفردية والدينية والسياسية وكذلك حق الملكية والتنقل والتعبير والنشر والصحافة.. إلخ.

ثم جاءت الثورة الأميركية بعد الثورة الإنجليزية عام ١٧٧٦ وقد استلهمت مبادئ عصر التنوير وفصلت بين الكنيسة والدولة وأسست المواطنية على أسس حديثة لا علاقة لها بالدين أو بالطائفية، وطبقت المبدأ الشهير القائل: «الدين لله والوطن للجميع»، ثم جاءت بعد الثورتين الانجليزية والأميركية الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، ومشت على منوالهما وأعطت للشعب حقوقه في التعبير عن نفسه، واختيار حكامه بعد أن ألغت النظام الملكي القديم، ثم تطرح المؤلفة هذا السؤال: ولكن ما هي المبادئ التي قامت عليها كل هذه الثورات؟ إنها مبادئ فلسفة التنوير بالذات، وهي الفلسفة التي شكلها مفكرو انجلترا أو فرنسا وأميركا منذ القرن السابع عشر وحتى القرن الثامن عشر.

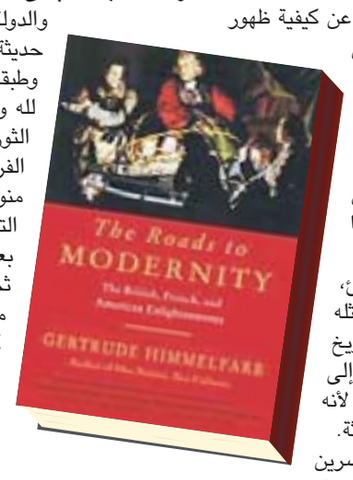

ومن أوائل فلاسفة التنوير في فرنسا المفكر الفرنسي بيير بايل الذي نشر كتابه الشهير عام ١٦٩٧، أي في أواخر القرن السابع عشر، وفيه انتقد كل العقائد الأصولية المسيحية القديمة وتنبأ بأن العصر المقبل ـ أي القرن الثامن عشر سيكون مستنيراً أكثر فأكثر.

وقد صدّقت الأيام نبوءته، فالقرن الثامن عشر كان عصر التنوير بامتياز. ومصطلح التنوير يدل على تلك الحركة الفكرية النقدية التي ازدهرت في القرن الثامن عشر وأدت إلى تفتح الأفكار الجديدة وانتشارها وحلولها محل الأفكار القديمة.

ثم تردف المؤلفة قائلة: كان مثقفو القرن الثامن عشر يتميزون بالحس النقدي العالية المستوى. وكانوا يعتقدون بأن الإنسان يتميز عن الحيوان بواسطة ملكاته العرقية التي تمكنه من معرفة قوانين الكون وتحسين وضعه المادي والمعنوي على هذه الأرض.

وكان كانط يقول بأن على الإنسان ان يستخدم عقله بشكل جيد وألا يستسلم للتواكل والكسل والخرافات والأوهام.

فهذه هي الأشياء التي منعت إنسان العصور القديمة من الخروج من مرحلة الهمجية والبربرية. وكان يقول أيضاً بما معناه: لقد كشف لنا كوبرنيكوس وغاليليو وكيبلر وديكارت ونيوتن القوانين التي تتحكم بالعالم الأرضي والسماوي. وهي قوانين فيزيائية ورياضية. وما علينا إلا ان نستخدمها بشكل جيد لكي نحقق حلم ديكارت في ان يصبح الإنسان مسيطراً على الطبيعة وسيدا لها بواسطة المخترعات والآلات التكنولوجية.

وهذا ما حصل لاحقاً في الواقع. وبالتالي فإن مشروع التنوير العلمي والفلسفي هو الذي أدى إلى صنع كل هذه المضارة الحديثة في أوروبا وأميركا الشمالية.

وقبل مجيء عصر التنوير في القرن السابع عشر كان المفكر الفرنسي بيير بايل والمفكر الانجليزي جون لوك قد ساهما في بلورة منهجية نقدية لتفكيك العقائد المسيحية القديمة القائمة على المعجزات العقلية الخرافية لا العلمية. ثم جاء فلاسفة التنوير بعدهما لكي يسيرا على الخط نفسه.

وكان في طليعتهم مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) رئيس برلمان مدينة بوردو وصاحب الكتاب الشهير تحت اسم: رسائل فارسية (١٧٢١) وفيه يهجو بشكل لاذع العقائد والعادات الفرنسية التي كانت سائدة في عصره.

وكان هذا الفيلسوف يقول بأن صعود الحضارات وهبوطها يخضع لقوانين معنية تماماً كما يخضع العالم المادي لقوانين الفيزياء والكيمياء والرياضيات، فالحضارة اليونانية صعدت بفضل عوامل وأسباب محبذة للصعود. ثم انحدرت الخطة وزالت بفعل أسباب سلبية تنخر فيها من الداخل. وقل الأمر ذاته عن الحضارة الرومانية التي سيطرت على كل حوض البحر الأبيض المتوسط في يوم من الأيام.

واعتقد الناس انها أبدية خالدة بسبب قوتها وجبروتها ثم انهارت لاحقاً مثل غيرها.

وبالتالي فهناك قوانين علمية تتحكم بنظام العالم، والأشياء ليست موضوعية أو عبثية على عكس ما نتوهم. وإذا ما فهم السبب العجب.

بعد ان تتوقف المؤلفة مطولاً عند الدور الكبير الذي لعبه التنوير الانجليزي في نهضة أوروبا نلاحظ انها تخصص فصلاً مهماً للتنوير الفرنسي تحت عنوان: «أيديولوجيا العقل». كما وتخصص فصلاً مهماً آخر للتنوير الأميركي تحت عنوان: «سياسة الحرية».

وفيما يخص الفرنسيين نلاحظ انها تواصل كلامها وتقول: في عام ١٧٤٨ حصل منعطف مهم في تاريخ الفكر الأوروبي عندما أصدر مونتسكيو كتابه الشهير: «روح القوانين». وفيه يحلل كل الأنظمة السياسية المعروفة ويستخلص القوانين التي تربط بين نظام كل بلد وبين عاداته وتقاليده ومناخه وجغرافيته واقتصاده. وهكذا برهن هذا الفيلسوف على نسبية النظام العلمي القائم في فرنسا. وقال إنه نشأ لأسباب معينة وقد ينهار لأسباب أخرى. وبالتالي فهو ليس مطلقاً ولا أبدياً ولا سرمدياً.

ثم أردف قائلاً: فإذا ما تغيرت العادات والتقاليد والاقتصاد فإن النظام سيتغير لا محالة ثم شرح مونتسكيو في كتابه الشهير هذا نظرية السلطات الثلاث التي ينبغي ان تحكم الأنظمة الجمهورية أو الديمقراطية أو الملكية الدستورية. وهي السلطة التشريعية (أي مجلس النواب) والسلطة التنفيذية (أي الحكومة) والسلطة القضائية (أي النظام العدلي). وكل بلد لا يفرق بين هذه السلطات الثلاث أو لا يعترف بها فهو ديكتاتوري واستبدادي بالضرورة وأهم ميزة لعصر التنوير هي تمجيده للعقل.

ففي السابق، أي في العصور الوسطى، كان رجل الدين هو الذي يمثل المعرفة والفكر. ولم يكن يستطيع أحد ان ينقده أو يخالفه لأنه يتحدث باسم الهيبة العليا والمقدسة للدين المسيحي. وهكذا شاعت الخرافات والعقلية والتواكلية ـ أي عقلية المعجزات والحكايات الخارقة للعادة بين الناس ولذلك كانت أوروبا جاهلة، أصولية، فقيرة، متخلفة. وقد ظلت كذلك ما دام الكهنة يسيطرون عليها.

أما بدءاً من عصر التنوير فلم يعد رجل الدين هو الذي يمثل الهيبة العليا للمشروعية المعرفية وإنما أصبح الفيلسوف أو العالم الطبيعي هو الذي يجسدها وعلى هذا النحو خرجت أوروبا من ظلام العصور الوسطى ودخلت في أنوار العصور الحديثة. ولذلك سمّوا ذلك العصر بعصر التنوير.

ثم تختتم المؤلفة كلامها قائلة:

وعلى هذا النحو أصبح العقل سيد الموقف. وراح يتفحص كل العقائد ويغربلها. فما تماشى معه تركه، وما لم يتماش رفضه وأزاله من الوجود. وعندئذ انتشرت الأفكار العلمية والفلسفية في أوساط الشعوب الأوروبية وأدت في النهاية إلى قلب النظام القديم وإحلال النظام الحديث محله.

ورافق ذلك حلول العقلية التجريبية العلمية المحسوسة محل العقلية الغيبية أو الميتافيزيقية البعيدة عن الواقع كل هذا ينبغي ان نأخذه بعين الاعتبار إذا ما أردنا ان نفهم سبب تفوق أوروبا على جميع شعوب العالم الأخرى.

الكتاب: الدروب المؤدية إلى الحداثة ـ التنوير الإنجليزي والفرنسي والأميركي
الناشر: فانتيج بوكس ـ نيويورك
الصفحات: ٢٨٤ صفحة من القطع الصغير

«ما لم يقل بيننا»

بيروت – – في مجموعة الشاعرة والروائية المغربية فاتحة مرشيد التي حملت عنوان «ما لم يقل بيننا» شعر هادىء النبض على كثافة ما يحمل ووجداني بعيد الأغوار في النفس دون صخب او هدير.

وهذا الذي لم يقل وقالته الشاعرة شعر نجد فيه عميق البوح يأتي في صور هادئة يغلب الرمزي على كثير منها كما نجد قصائد المجموعة متلاحمة متداخلة حتى نكاد نقول انها قصيدة واحدة.

والواقع انه ليست هناك في المجموعة قصائد مقسمة منفصلة تحمل كل منها عنوانا وتقول لنا اين تبدأ حدودها –من حيث الاسطر– واين تنتهي.

الشاعرة تركت صفحاتها دون تقسيم ودون عناوين وحيث تنتهي صفحة تبدو لنا خاتمة قصيدة لتبدأ صفحة اخرى توحي بانها بداية اخرى.. لا نلبث ان نجد تلاحما وتكاملا واستئنافا هنا او هناك لما سبق. فكأن كل شيء في المجموعة هو نتيجة تجربة واحدة وابن حالة واحدة تعددت الوانها لكنها بقيت في شبه توأمية واضحة.

فاتحة مرشيد تقول بهدوء أخاذ يحمل القارىء الى عالم من الاغوار المرسومة فنيا بطريقة تفيض ايحاء وامتاعا. والمجموعة تشكل كتابا مما يقال فيه بالفرنسية المعربة انه «أنجليه اراب» اي يجمع بين اللغتين العربية والانجليزية. الاصل هو النص العربي الذي كتبته فاتحة مرشيد ومقابله ترجمة الى الانجليزية قام بها نور الدين زويتيني فجاءت شديدة الشبه بالاصل العربي.

جاء النص العربي في ٧٢ صفحة متوسطة القطع كما جاء النص الا نجليزي في ٧٢ صفحة مماثلة. وقد اتبع المترجم فضلا عن روحية النص الاصلي نمط تقسيم القصائد –او القصيدة الكبرى– نفسه.

صدرت المجموعة عن المركز الثقافي العربي في الدار البيضاء في المغرب وبيروت في لبنان.

الدكتورة فاتحة مرشيد المولودة في مدينة ابن سليمان المغربية هي طبيبة اطفال وتكتب الشعر والرواية ولها